

التواصل مع النص:

من أجل قراءة فعالة محققة للفهم

الأستاذ الدكتور بشير إبرير

قسم اللغة العربية وآدابها

. جامعة عنابة . الجزائر

أولاً: المقدمة:

إن ما تحتويه هذه الدراسة إن هو إلا محاولة بسيطة في حاجة إلى تعميق وروية لأن ميدان التواصل واسع ومحطاته متعددة ومتشابكة، ولأنّ النص يكوّن إشكالية كبيرة ومعقدة في تعليمه وقراءته وفهمه والتواصل معه.

فما هو التواصل؟ وما هو النص؟ وما هي القراءة؟ وما هو الفهم؟ وما علاقة بعضها ببعض؟ ثم ماهي أهم الإجراءات المنهجية والبيداغوجية للقراءة الفعالة المحققة للفهم؟ وإجراءات تطويرها؟ على هذه الأسئلة يتأسس هذا الموضوع ونحاول فيه الإجابة عنها بقدر الإمكان بغية تحسس بعض ما تعانيه حياتنا التعليمية من عناء وعنت في مسألة مهمة كهذه، ومن أجل إلفات النظر إلى موضوع نراه يحتاج إلى التدبر والدرس في عصر نراه يشهد عملاقة تكنولوجية معقدة وتطورا معرفيا عميقا ومكثفا لا مكان فيه لمن لا معرفة له ثم إننا لسنا في حاجة إلى تحصيل المعلومات فقط وإنما نحن في أمس الحاجة إلى اكتساب منهجيات تحصيلها وتحليلها وتمثلها واستثمارها في كل ما تقتضيه الحياة.

ثانيا: المفاهيم الأساسية في الموضوع:

1 . مفهوم التواصل وأهميته البيداغوجية:

يعد التواصل عنصرا بالغ الأهمية في الحياة الإنسانية، فالحياة ذاتها تواصل مستمر والإنسان يشرع في تواصله مع الآخرين ابتداء من صرخة

الميلاد ويظل كذلك إلى مماته وقد يستمر في تواصله معهم بشكل غير مباشر إذا ترك آثارا فنية أو فكرية بعده.

إن التواصل فعل حضاري لا بد منه في حياة الأمم والمجتمعات وإذا ما تعرضت الأمة إلى هزة اجتماعية أو سياسية أو فكرية أو اقتصادية فإن مرد ذلك . في نظري . إلى خلل في التواصل الحاصل بين أفرادها وجماعاتها وهيئاتها ومؤسساتها.

كما أنّ التعريفات التي وضعت للتواصل كثيرة ومتعددة بكثرة وتعدد النظريات والمقاربات المختلفة اليت كان التواصل محور اهتمامها ولذا يصعب اختيار التعريف الدقيق الذي يمكن أن يحيط بالتواصل في مختلف ميادينها ومظاهرها.

يقابل المصطلح العربي «تواصل¹» المصطلح الأجنبي communication وهو بمعناه العادي، كلام شفوي، أو مكتوب يرسله إنسان إلى إنسان آخر أو آخرين يتضمن معارف اكتسبها شخصا وهو أيضا تبادل المعلومات التي تعطي أهم الأشكال التي يتم تبادلها، والتكلم بها بناء على الاستناد على وضع لغوي محدد.²

¹تقابل المصطلح الأجنبي Communication عدة كلمات بالعربية منها: التبليغ والإبلاغ والتوصيل والاتصال والتواصل، وأرى كلمة "تواصل" أكثر دقة من الكلمات الأخرى، لأنها تعني كلا من المتكلم والمخاطب والتفاعل الحاصل بينهما خصوصا في هذا الموضوع.

نستشف من هذا التعريف لـ « روبير لافون R.LAFON » أن التواصل هو ما يتم تبادله من أفعال كلامية شفوية كانت أم مكتوبة بين متخاطبين ولكي يتحقق هذا التبادل لابد أن يتوفر شرط أساسي وهو: أن ينطلق المتخاطبان من وضع لغوي³ « code » واحد في الإرسال والاستقبال.

ويمكن أن نعد تعريف الباحث الأمريكي « CHARLES COLLY » من أهم التعريفات التي اتفق عليه كثير من الدارسين وأعدوه أقرب إلى ميادين التربية والتعليم، ويتمثل في أن التواصل هو: « لمكانيزم الذي بواسطته توجد العلاقات الإنسانية وتتطور، إنه يشمل كل الرموز الذهنية مع وسائل تبليغها عبر المجال وتعزيزها في الزمان، ويتضمن أيضا تقاسيم الوجه وتعابيره، وهيئات الجسم والحركات ونبرة الصوت والكلمات والكتابات والمطبوعات والقطارات والتلغرافات والتلفون وكل ما يشمله آخر ما تم من اكتشافات في الزمان والمكان⁴. »

نستنتج من هذا التعريف أن التواصل يعد جوهر الحياة الإنسانية فهو يأخذ في اعتباره كل عوامل الذهن وكل الرموز، كالإيماءة والإشارة وغير ذلك من وسائل التواصل اللغوية وغير اللغوية.

³تقابل المصطلح الأجنبي Code عدة كلمات بالعربية منها: الواضحة والوضع والقانون والاتفاق والشفرة ونظام الرموز، وأرى أن مصطلح "الوضع" أكثر دقة من بقية المصطلحات الأخرى، لأن اللغة وضع واستعمال، إذ الاستعمال هو استثمار للوضع الذي لا يعني اللغة وحدها وإنما يعني أيضا الثقافة والمجتمع باعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية تعبر عن المجتمع في محتوياته ووقائعه وممارسته الثقافية والاقتصادية والسياسية. الخ

⁴محمد أضر زور، المقاربة التواصلية وديداكتيك اللغات، مجلة الدراسات النفسية والتربوية، عدد

1990/11، كلية التربية، جامعة محمد الخامس، الرباط ص:73.

إن التواصل نظام ينطلق فيه المتكلم والمخاطب من الوضع نفسه لبناء الخطاب وفك رموزه وإرساله واستقباله ومن ثمة فهمه في مختلف ظروفه وأحواله كما أن نوعية الوسيلة المستعملة فيه هي التي تحدد نوعيته إذا كان لغويا أو غير لغوي⁵.

وتعد اللغة الوسيلة الأساسية في عملية التواصل، تساعد مستعملها على ربط علاقاتهم وتضمن الفهم المتبادل بينهم، ثم تتنوع . بعد ذلك . الأغراض في الخطاب إلى مستويات حسب الحالة التي يتم فيها ونوعية العلاقات بين المتخاطبين بناء على الوضع والنظام بناع على الوضع والنظام اللغوي الذي ينطلقان منه ونوعية الأخبار والخطابات التي يتبادلانها، فبعضها لغوي وبعضها الآخر غير لغوي، إذ يمكن أن تتدخل فيه عوام نفسية واجتماعية وفيزيولوجية وقد تحيل إلى أصول معرفية محددة.

ولعل الحياة التعليمية أفضل مثال على العملية التواصلية، يظهر ذلك واضحا جليا في عناصرها: معلم يبئغ مادة تعليمية بما تحتوي من معلومات علمية أو فنية إلى المتعلم، فهي نفسها عناصر التواصل: متكلم ومخاطب يتبادلان خطابا ما حسب ما يقتضي المقام الذي يتواجدان فيه والوضع الذي ينطلقان منه⁶ وتظهر هذه العلاقة على أكثر من صعيد وفي كثير من المستويات، ومن هنا يكتسب التواصل أهمية في العملية التربوية، فالمعلم الذي

5-انظر، بشير ابرير، توظيف النظرية التبليغية في تدريس النصوص بالمدارس الثانوية الجزائرية، كتوراه دولة، مخطوطة/ جامعة عنابة، قسم اللغة العربية وآدابها، سنة 2000، المقدمة، الصفحة الأولى.

6-انظر، المرجع نفسه، المقدمة، الصفحة الأولى.

يشتغل بالنص ويعمل على تبليغه للمتعلمين عليه أن يبحث في تحليله ومعرفة مختلف المعاني التي تؤديها العلامات والإشارات والرموز في النص وعلاقة بعضها ببعض سواء أكانت لغوية أم غير لغوية.⁷

2 . مفهوم النص:

للنص تعريفات عديدة بحسب نظرة كل دارس والمدرسة التي ينتمي إليها وبحسب الخصوصيات الثقافية والنفسية والحضارية التي تميز دارسا عن دارس آخر.

ولا يمكن لنا أن نعدد كل هذه التعريفات

نقرأ في المجلد 15 من معجم لاروس العلمي ما يلي:

تتحدّر كلمة النص Textus من فعل نص Texere نسج، والنص تبعاً لذلك يعني الثوب، ويعني بعد ذلك تسلسل الأفكار وتوالي الكلمات إنه الكلام الخاص بكاتب معين في مقابل التعليقات.⁸

وجاء أيضاً في لسان العرب: "النص رفعك للشيء . نص الحديث ينصه نصاً رفعه، وكل ما أظهر فقد نص، ووضع على المنصة... ونص الشيء وانتصب إذا استوى واستقام"⁹

وإذا تجاوزنا الجانب المعجمة إلى الاصطلاحي فإننا نجد من بين أهم التعريفات للنص ما ذهب إليه: "روجي فولو R. FOULER" في كتابه: "اللسانيات والرواية... يقول: "إن النص يعني البنية النصية الأكثر إدراكاً ومعاينة... وعند

7-انظر، بشير إيرير، التواص مراحل وأنواعه وأثره في العملية التعليمية.مجلة الفيصل، عدد273.سنة: 1999 ص:

8-انظر، Dictionnaire Universel Larousse ; Tom 15 ; Texte،

9- نقلا عن المرجع نفسه، ص 25

اللساني هذه البنية هي متوالية من الجمل المترابطة فيما بينها تشكل استمرارا وانسجاما على صعيد تلك المتوالية¹⁰

حصر هذا التعريف النص في البنية الشكلية الخارجية المتمثلة في الكتابة كمظهر خارجي نشاهده بأمّ أعيننا، أي نقرأه ثم يقول: إن هذه البنية هن متوالية من الجمل المترابطة فيما بينها مركزا على الانسجام الحاصل بينها.

وقد ذهبت "حوليا كريستيفا J.KKRISTEVA" إلى أنّ النص جهاز عبر لساني يعيد توزيع نظام اللسان (LANGUE) عن طريق ربطه بالكلام (parole) التواصلية راميا بذلك إلى الإخبار المباشر مع مختلف أنماط الملفوظات السابقة والمعاصرة¹¹.

ويرى رولان بارت R.BARTHES " أن النص هو: "السطح الظاهري للنتاج الأدبي نسيج الكلمات المنظومة في التأليف، بحيث تعرض شكلا جديدا ثابتا ووحيدا¹² أما "بول ريكور P.RICOEUR فيرى أن النص: "خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة"¹³.

يحلينا كل تعريف من هذه التعريفات إحالة تتناسب ووجهة النظر الخاصة به، يحصل فيه هي علاقة توزيعية، أي: علاقة هدم وبناء على رأي الأستاذ سعيد يقطين ثم هو أيضا مجموعة من نصوص متبادلة أو متناصّة، إذ نجد في النص الواحد ملفوظات مأخوذة من نصوص عديدة غير النص الأصلي.

10-نقلا عن سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ط1989، ص12.

11-المرجع نفسه، ص 19.

12- عز الدين المناصرة، نص الوطن وطن النص شهادة في شعرية الأمكنة، مجلة التبيين، العدد 1، تصدر عن جمعية الجاحظية، الجزائر، ص40.

13- المرجع نفسه، ص 40

و" يتم فصل عند بارت كدليل ينقسم إلى دال ومدلول، غير أن الدليل بمعناه التقليدي وحدة منغلقة على ذاتها، وهذا الانغلاق يوقف المعنى ويمنعه عن أن يكون متعددًا..¹⁴

كت نهريف "بول ريكور" فقد ركز على تثبيت النص بواسطة الكتابة، معنى ذلك أن النص هو ما نكتبه وبذلك فهو يختلف عن الخطاب الجاري استعماله بين المنهاطيين فإذا كانت اللغة المكتوبة تنتج نصوصا فغن اللغة المنطوقة تنتج خطابات.

إن كل هذه التعريفات قد ركزت اهتمامها على عملية الكتابة وما يتبعها من قراءة وتحليل وتفسير وتأويل وإذا كانت العلمية التعليمية تقتضي كل هذه الإجراءات فلأن النص من وجهة النظر البيداغوجية يعتبر وحدة تعليمية تمثل محورا تلتقي فيه المعارف اللغوية المتعلقة بالنحو والصرف والعروض والبلاغة وعلوم أخرى كعلم النفس والاجتماع والتاريخ، بالإضافة إلى المعطيات المعرفية المتميزة التي أصبحت تقدسها علوم اللسان في دراسة النصوص وما في ذلك من فائدة جلييلة تعود على العملية التعليمية.

¹⁴-سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص21